

ويعزو ويگرام هذه القوة التي يتمتع بها الرؤساء الكُرد الكبار اما الى المكانة الدينية واما الى الحصانة الجغرافية اذ يأتي ويگرام بمثال عن منطقة السندي ويصف هضبتها (طنين) بالهضبة العظيمة الشاهقة الممتدة فوق الجبال المكسوة بالغابات الكثيرة المياه ومراعيها الواسعة جداً تكفي قطعان القبيلة طوال فصل الصيف ولم يسمح لاي اجنبي بزيارة القمة كما لايمكن ان يبلغها امرء حسبما يقال الا بطرق ثلاثة سهلة محروسة حراسة شديدة وما ان تبلغ القبيلة الهضبة حتى تكون في موضع يمكنها به ان تهزأ بآية قوة حكومية تجرد عليها من المنطقة وان قوة كبيرة تحشد لغرض إلقاء الحصار عليها يتعذر تأمين القوت لها، في حين يكون من السهل جداً ان يتغلبوا هم على وحدات صغيرة من الجيش التي قد ترابط في الممرات ورؤوس الطرق. لاشك ان جيشاً مصمماً على هدفه لا يتعذر عليه اقتحام هذا المعقل ولكن بعد ان تلحق به خسارة فادحة للغاية ونقطة الضعف الوحيدة في هذا المعقل تكمن على ما يبدو في حقيقة عدم قدرة أي انسان أو حيوان ان يعيش في هذه القمة أيام الشتاء والقبيلة نفسها تنزل إلى السهل حالما تهب رياح الخريف ويتساقط اول الثلج وفي هذا تكمن فرصة الحكومة (٢٨٣).

ان نقطة القوة الجغرافية التي تقابلها نقطة ضعف مناخية هي ليست مشكلة هضبة طنين معقل قبيلة السندي حسب بل تكاد ان تكون هذه المشكلة عامة اقتضتها طبيعة الجغرافية الكُردية ومناخ كُردستان.

وقد فات ويگرام في هذه المسألة، عند اشارته إلى المكانة الدينية أو إلى صعوبة المنطقة ان المسؤول الكُردى الدنيوي يملك من الولاء القبلي ما يمكنه من شن حرب على قبيلة ما أو عصيان على حكومة، ومن هنا نجد ان الولاءات وعدم الولاءات بين الكُرد والحكومات المهيمنة على الشعب الكُردى كانت تتحكم فيها النزعة القبلية ومزاجية ومصالح رئيس القبيلة، فاذا كان رئيس القبيلة مع الدولة كانت القبيلة كلها مع الدولة واذا اعلن رئيس القبيلة خصامه مع الدولة كانت القبيلة كلها محاصمة للدولة، وليس للفرد في القبيلة ان يفكر أو يسائل نفسه لماذا؟ انها سياسة القطيع إذ لا قيمة للفرد الا من خلال قبول أبناء جلدته له.

ومن هنا يمكن ان نقول ان معظم ان لم نقل كل الثورات الكُردية التحررية المسلحة كان وقودها رجالاً قبليين مسلحين، وان اول مؤتمر كردي سياسي عقد لمناقشة قضية كُردستان كان في عام ١٨٨١ في قرية نهري* فقد دعا الشيخ عبيدالله الشمريني كل رؤساء القبائل الكُردية في عموم كُردستان التركية والإيرانية والعراقية إلى إجتماع موسع لمناقشة القضية الكُردية.

ويحدثنا فريزر عن لقاءه برستم بك وكان رئيساً لعشيرة زَنَكَنَه، فقد تحدث رستم عن نفسه

* نهري: قرية تقع في كردستان قريباً من الحدود العراقية الإيرانية.

وأنه قد جرح عشر مرات على الأقل على الرغم من إمتلاكه لأحسن الدروع ولكنه أثر ان لا يستعملها بل يعتمد على الله وحده في القتال ويصف رستم بك الأيام الكردي الخوالي ويعتبر على زمانه أثناء حديثه مع فريزر اذ لا يجد فرسان أيام زمان، ويتحسر على المقاتل الذي حولته الحياة إلى فلاح يمشي وراء المحراث والمؤسف حقاً أن فريزر يصف رستم بك به (المتوحش) إذ يقول لاشك انك عرفت الآن ما يكفي عن رستم آغا لقد اغريت على وصف شخصيته والكتابة عنه بشيء من التفصيل لانه انموذج ممتاز للرئيس الكردي المتوحش فقد زودنا في صباح اليوم التالي بدليل للطريق ورسالة إلى كفري اقسام فيها يعيونه ويحياة ضيفه ونفسه بان لآتمس ولا شعرة من رأسي في أي مكان تكون فيه كلمته مسموعة. هل يمكن ان يوصف مثل هذا الانسان بالوحشية أو المتوحش. لقد مات فريزر والا لكتبتنا له سائلين مستغربين؟

لقد جرى حديث بين فريزر ورستم بك عن الاسلحة ويبدو أن المسدسات الصغيرة لم تكن قد راقت له بل كان يفضل مسدساً من نوع مورتيمر وهي مسدسات كبيرة الحجم كان رستم بك يحمل اثنين منها... وكان فريزر قد التقى قبل ذلك بسليم آغا رئيس الكرد الدلو الذي وصف الكرد لفريزر إذ قال عنهم كنا نحن الأكراد في زمن من الازمان جنوداً اقرباء ولم نكن نفكر بغير الركوب والتدريب على الحرب بالسيف والرمح وبالصيد إذ كان عندنا ما يكفي لمعيشتنا وكان فلاحونا يزرعون الارض لنا لكن اليوم كل رجل منا مضطر لان يضع السيف والرمح جانباً وينصرف إلى المحراث وما هو نفع الجندي يا سيدي حينما يبدأ باستخدام المحراث؟ ويبدو ان سليم آغا ايضاً كان لا يثق بالمسدسات الصغيرة الحجم فقد كان يحترقها إلى ان برهن له فريزر على كفاءتها وشدة تأثيرها (٥١).

الحقيقة أن الجانب الظاهري من الأشياء هو الأكثر والاسرع تأثيراً على المرء لاسيما في المجتمعات البدائية، فمفهوم المسدس الكبير وفضليته على المسدس الصغير لا يد وان امتداد لمفهوم الخنجر الكبير الذي هو اقدر على الفتك من الخنجر الصغير لان كفاءة الاداء في الالات البسيطة، وأكثر أنواع وسائل الانتاج البدائية ترتبط بالسعة والحجم ولكن التطور التكنولوجي استطاع ان يضع بيد الانسان آلات، يصغر حجمها وتشتد فعاليتها. والكرد مغرمون بالاسلحة وبالحديث عنها وبسرود حكايات عن الحروب حتى ان هناك كثرة من الاغاني التي تتغنى بالملاحم والمعارك والقتال لا بل وان من المخجل في كثير من الديوان خانات أو مجالس الضيافة ان يغني مغني القرية غير الاغاني القتالية التي تعبر عن القوة والرجولة والصمود والصبر بينما اغاني الحب والغرام لاتغنى في مجالس الرؤساء أو البيكات أو الاغوات لانها تعد من اغنيات الهشاشة النفسية الا اذا اقترنت قصة الحب بقتال وعنف ومعركة بين ذوي

العريس وذوي العروس، أو اذا كان في الزواج نوع من التحدي والبطولة. ومن الامور التي اثارت إعجاب شميمدت لدى المقاتلين الأكراد هو طابع مميز رفع إلى مستوى التكتيك الا وهو السرية التامة في اعمالهم. ان هذه الخصائص الحربية هي التي جعلت مارك سايكس (١٩٠٢) يؤمن ببسالة الشعب الكردي وصعوبة دحره.

لقد دون السير مارك سايكس مشاهدته لمواقف الاستنفار للقتال أو المعركة عند الكردي، فهو يصف رغبتنه في البقاء مع حراسه الأتراك في قرية دوربان الواقعة بين مخمور وآلتون كويري في منطقة أربيل.

فما ان اعتقد اهل القرية بان هجوماً سيقع عليهم حتى قفز الرجال على خيولهم غير المسرجة، وبندقية المارتين تجدها في يد كل رجل اما النسوة فقد صعدن إلى السطوح يهللهن ويصحن ثم يذكر سايكس ان أكثر شيء استناره هو عندما وجد الاندفاع غير الطبيعي نحو القتال حتى عند الاولاد الصغار في عمر ٩-١٠ سنوات، والنساء يشجعن الرجال وبعضهن خرجن بانفسهن باتجاه المعركة.

ويعلق سايكس على هذا المشهد بقوله ان الانتصار على مثل هذا القوم أو اكتساحه باي شكل من الاشكال يعد مهزلة (١٩١-٢) ويقصد لايمكن ان تكسر شوكة الكردي المقاتلين بعد ان رأى هذا الاندفاع نحو معركة لم تحصل اذ تبين من بعد ان المتقدمين نحو القرية لم يكونوا اعداء بل كانوا مجموعة من الحاصدين.

ويتحدث ويگرام عن اخلاقية القتال عند الشعب الكردي فهناك اتفاق بين المتحاربين الكردي وهو، لاي من الطرفين المتصارعين ان يأخذ ما يريد لكن ما يترك لايدمر ولايتعرض احد للنساء بسوء وعلى هذا المبدأ كانت الماشية سلباً قانونياً عادلاً وكذلك البسط وغيرها من اثاث المنزل، والاسلحة طبعاً لكن حرق البيوت والمزروعات... وتخريب السواقي هي من المحرمات. ولقد لوحظ ان النسوة يبقيين دون حراسة لان ما من احد سيعتدي عليهن (١٥٧).

لقد وصف الميجر سون الشعب الكردي بانه شعب صاحب عقيدة محاربة (١٨١) وتعليقاً على وصف سون للشعب الكردي لايد من توضيح مسألة جد مهمة وهي ان الكردي لم يكونوا اصحاب عقيدة حربية لذات الحرب فهم ليسوا هواة حرب لكنهم يعيشون ومن امد بعيد جداً ظروفًا حتمت عليهم تبني عقيدة الحرب واعداد ابنائهم اعداداً قتالياً... سواء بشكل مباشر أو غير مباشر عبر التاريخ، فلولا إمتلاك الكردي لشخصية المقاتل المنتظر وعلى اهبة الاستعداد مدى الحياة لإنتهى هذا الشعب منذ امد بعيد. ان الظروف الإقتصادية وطبيعة كردستان

وثرواتها وموقعها الجغرافي جعلت من هذه البقعة مسرحاً لم تسدل عليه ستارة يوماً عبر التاريخ لمطامع قادمة من شرقها وغربها وشمالها وجنوبها.

وعندما تتصارع قوتان عظيمتان فان ساحة الاصطراع كُردستان المضيفة للحرب وعليها تحمل تبعات هذه الضيافة الثقيلة. وعندما تشن احدى هاتين القوتين حرباً خارج كُردستان فان الكُرد وقود هذه الحرب والا اصبحوا خصوماً بالنيابة عن الجهة التي تريد تلك القوة شن الحرب عليها. واذا تنحنت احدى القبائل معربة عن الظلم والاستبداد واللاعادلة التي حلت بها من رجال هذا أو ذاك شنت الامبراطورية حرباً لها بداية وليس لها نهاية لتدمير تلك القبيلة، وتأديبهم اطفالاً ونساءً وشيوخاً واخيراً ان تمكنوا رجالاً. واذا همهمت عدة قبائل برغبتها للحصول على حقوق قومية نزلت الصاعقة عليهم لكفرهم المبين... وتقدمت العساكر من كل حذب وصوب وتآلفت القلوب الدولية المتخاصمة فنشأت الاحلاف والمعاهدات ... (واضربوهم حتى النخاع) هذه هي حياة الكُرد التي املت عليهم ان يكونوا مقاتلين اشداء ومحاربين رهن الاشارة. اننا اذ نقول هذا لا من باب التعاطف الانتمائي للكرد بل لان ما نقول يعتمد حقيقة سايكولوجية وهي ان الكُرد في حياته العامة، رجل مسالم، رجل يحب زوجته ويعشق اطفاله، ويخدم بشكل مدهل ضيفه، هذه الحقائق لا بد ان يلمسها القاريء في هذا الكتاب، ومثل هذه الحقائق التي هي سمات في الشخصية، لا يمكن ان تكون في شخصية عدوانية فالشخصية العدوانية شخصية سلبية في تعاملها الاسري وفي حياتها العامة، شخصية سلبية مع الزوجة والاطفال ومع القاصي والداني. اذن الشخصية المقاتلة للكرد هي نتيجة لعوامل متأتية من خارج الذات الكُردية باتجاه الداخل بعبارة أخرى ان القتالية سمة يفرضها المحيط الكُرد الذي هو مجموعة عوامل عديدة منظورة وغير منظورة ومباشرة وغير مباشرة حاضرة وماضية تفعل فعلها معاً في تكوين الشخصية المقاتلة التي هي اساس من اساس عوامل البقاء تاريخياً.

ان شغف هذه الشخصية المقاتلة بالسلاح امر واضح، وقد لاحظته كل من زار الكُرد وتحدث معهم فاذا لم يكن اول سؤال عن السلاح فلا بد ان السؤال الثاني سيكون عن نوع وطبيعة السلاح الذي يحمله الزائر الضيف ولا بد من تفحصه وتقليبه ولا يتوانى ان يعرض على زائره رغبته في مقايضة سلاحه اذا اعجبه بأي شي يمتلكه.

يذكر فريزر، لدى زيارته السلিমانية، ان باشا السلیمانية كان قد اشار من طرف خفي إلى رغبته في مبادلة فريزر سلاحه، اذ كان لديه بندقية زائدة أو مسدس لقاء حصان كردي وعلى ما يبدو ان هذه المقايضة لم تفلح على الرغم من ان فريزر استجاب له وارسل له بيندقبة ومسدس ذي سبطانتين (انبويتين) لاجل ان يتفحصها ويرى رأيه فيها (٣٦).

وقد وصف ريج سلاح الكُرد الذي يتسلحون به في منطقة السليمانية اذ يذكر ان الأكراد يتسلحون على اختلاف طبقاتهم ففقيرهم وغنيهم، صغيرهم وكبيرهم، بالخنجر ويضيف الجاف والعشائر الأخرى إلى سلاحهم المقمعة وهي قضيب خشبي ينتهي بكرة حديدية فالخنجر والمقمعة هذه والسيوف وترس صغير ملقى على الكتف، كل هذه تؤلف اسلحة الكُردى المشي، اما الخيال فيضيف إلى هذه الاسلحة الرمح ومسدساً بحمالة ومن يتمكن منهم يلبس في الحرب ثوباً من الزرد وخوذة فولاذية ويتسلح المشاة عادة بالبنادق الطويلة الثقيلة ذات المساند الملقطية باسنادها عليها عند الرمي (٢٠٧).

ويصف ريج رغبة عثمان بك وهو ثاني شخصية بعد أمير بابان، ان يعلمه المبارزة بالسيوف ورمي الهدف بالمسدس وهذا ما يجهله الشرقيون على حد تعبير ريج (٨٤) والحقيقة ليس هناك تحديداً كالذي وصفه ريج في كل اصقاع كُردستان في موضوع حمل السلاح، فقد يكون الكُردى راكباً وحاملاً بندقية أو بندقية ومسدساً أو يكون راجلاً وحاملاً لمسدس فقط ولا يد من الاشارة إلى ان احزمة الخراطيش هي ايضاً من مكملات السلاح المحمول وقد نجد حزام الاطلاقات يحيط بخصر الكُردى أو حزامين متعاكسين ينزلان من على كتفيه.

اما هاملتون فيكتفي بوصف الخنجر وهو السلاح الكُردى التقليدي فيذكر ان الكُرد يدسون تحت حزامهم العريض خنجراً لا يفارقهم قط هذا السلاح المعقوف ذو المظهر المخيف يقصد به الزينة لا غير عندما يغيب معظمه في الحزام بشكل مائل اما اذا اريد ان يكون مهيناً للاستعمال وفي متناول اليد فيوضع امام الصدر مرتفعاً ليسهل انتظاؤه بسرعة البرق وقد اشتهر الكُرد باستعماله وقيل ان الترك أي -الحكومة- منعوا الكُرد من حمل الخنجر وكانوا يطلقون الرصاص على كل من يأبى تسليمه (١٠٩) نعتقد ان الخنجر زامل الحزام الكُردى دون السيف وقد قل استخدام السيف بسبب المحيط الجغرافي فالسيف بحاجة إلى مساحات عريضة للمبارزة بينما كثرة وحدة التضاريس الكُردية جعلت الكُردى يجد الخنجر اجدي.

والخنجر يغنى به في الشعر والفلكلور الكُرديين وفيه أنواع وتسميات تبعاً لنوع الصناعة أو مكان الصنع وكان الخنجر يعد من متممات الزي اذ يبرز جزءاً منه خارج الحزام العريض وكثيراً ما يلف الكُردى على قبضة الخنجر سبحته. ولاشك فان سلاح الكُرد كان على نوعين منه مصنوع خارج كُردستان ومستورد كالمسدسات والبنادق ومنه ما يصنع في كُردستان مثل الخناجر ولكن كُردستان كما يبدو شهدت صناعة الطبنجات (المسدسات) وكذلك اشتهرت بعض القرى الكُردية بصناعة البنادق والاطلاقات وعبوات البارود، لا بل اشتهرت مدينة راوندوز بصناعة المدافع في زمن الأمير محمد أمير امارة سوران، ولا تزال بعض هذه المدافع معروضة في بغداد.

ويذكر توما بوا ان في مدينة السليمانية وحدها كان هنالك (١٥٠) محترفاً بصناعة الاسلحة ولهم فيها خبرة جيدة وكانوا قادرين على تزويد القبائل على طرفي الحدود بالاسلح (٣٦).

وفي مذكرات برانت الذي زار المنطقة الجنوبية الشرقية من كردستان في تركيا فقد ورد ان لا احد من الكُرد في هذا الصقع من القطر يستعمل الدروع الدفاعية. ان الكُرد يحملون الرماح وزوجاً من المسدسات وبنندقية صغيرة ذات فوهة ناقوسية الشكل وكذلك يمكن ان يشاهد من يحمل سيفاً وترساً واحياناً ترى بينهم من يحمل حقيبة فيها ثلاثة سهام تمتد لتصل إلى سرج الفرس (١٥٩).

لقد وصف بعض الرحالة معارك جرت بين قبيلة كردية وأخرى كما سمعوها من اهل المنطقة فهذا ادموندز يضعنا امام هذه الرواية التي سمعها وهي معركة كانت قد جرت بين قبيلتي (الزَنكَنه) و (الدكو) وتقول الرواية قام الزَنكَنه بشن غارة ليلية مباغتة على قبيلة الدكو انتقاماً لثأر قديم ووقعوا بهم مذبحه كبيرة اظهروا فيها شراسة غير مألوفة قط في عالم الحروب القبلية. وبعد ان دفنت الدلو قتلاها في قبر واحد بعثت بوفد كبير إلى كركوك لعرض شكواها وطلب الفدى. وانتهز الزَنكَنه فرصة غياب الدكو فنبشوا القبر واخرجوا الجثث وملئوا الحفرة بما استطاعوا جمعه من كلاب وبغال وجمال نافقة، ثم اسرعوا في اعقاب المشتكين إلى كركوك وطلبوا من السلطات ان تقوم بأجراء تحقيق دقيق في التهمة الظالمة التي لفقها عليهم اعدائهم الألداء فأجري الفحص على القبر وكانت النتيجة في صالح الزَنكَنه فأقترح قاضي التحقيق ترحيل الدكو قسراً إلى منطقة كفري وما يليها وهكذا دخل قاموس اللغة مصطلح الزَنكَنه بزى أي غش الزَنكَنه لكل حيلة ماكرة من أي نوع كان (٣٢٨).

ومن المعارك التي عاشها ويگرام في كردستان معركة جرت بين المسلمين والمسيحيين والحقيقة ان ويگرام هو مبشر ورجل دين، لم يتحيز للمسيحيين في هذه المعركة بل نجده يؤيد موقف الكُرد المسلمين.

يتحدث ويگرام عن شخصية كردية وهو احد رؤساء الكُرد المشهورين ويدعى بدرخان وهو ليس الأمير بدرخان الذي ثار على الدولة العثمانية في ١٨٤٣ بل هو شخص قاد جماعته من الكُرد المسلمين والمسيحيين المتشوقين على حد سواء إلى ساحة القتال وكان شماس احدي القرى المسيحية يليه مباشرة في القيادة، ويبدو ان هذا (الاغا) كان لا يطبق أي شكل من اشكال التمييز أو الاساءة إلى الضيف، فقد عرض على ويگرام ان صدور أي شكوى من ويگرام أو من خدمه فإنه سوف يشنق كرديين على الاقل كل مرة ويقول ويگرام، الواقع اننا ترددنا في وضع انفسنا موضع القائلين بهذا المعروف على ان بدرخان بك كالجنرال روبرت

كروفورد عرف بتنفيذ تهديداته بالحرف الواحد (١٧٦) ثم يذكر ويگرام ان في عام ١٩٠٣ شب فجأة النزاع بين عشيرة بدرخان البكرزاده هذا والمسيحيين في المنطقة ويقول ويگرام في هذا المجال ان الذمة تقتضي علينا ان ننوه بدور ذوي الرؤوس الحارة المسيحيين الذين بذلوا أقصى ما في طاقتهم لتأجيج النار . فقد اقدموا على لعبة حقيرة قذرة للسخرية والتندر على المسلمين من الجانب الاخر باستخدامهم النعرات المذهبية بين الشيعة والسنة، استخداماً شنيعاً فاطلقوا اسم ولي مسلم على كلب واطلقوا اسم ولي اخر على كلب ثان والبسوا الاول ثياب جندي ووضعوا على ظهر الاخر حلة الملا* واطلقوا احدهما على الاخر ليمزقه. لامراء في ان مثل هذا العمل الدنيء كان كفيلاً باثارة مشاعر اناس أكثر وداعة ومسألة من جيرانهم البكرزادة فلم يكن من العجب ان ينشأ حلف ضد قرية (ماوانه) المجرمة التي كانت في نزاع شديد حتى مع حليفاتها قرية (بلولان) المسيحية ولهذا بدت ماوانه فريسة سهلة (١٧٨) ويعيداً عن التفصيل الذي يسرده ويگرام في هذا الموضوع، فان النزاع على ما يبدو استمر أربعة عشر يوماً حتى وقع (الشماس) خادم الكنيسة المتعصب هو وجماعة من رجال ماوانه تحت رحمة عدد من الكُرد المسلمين وحوصروا في قرية صغيرة .

هنا يقول ويگرام، انصافاً للكرد انهم عرضوا عليه حرية الخروج من القرية بسلام وشرف عندما علموا بوجوده بين اعدائهم (ومع علمهم التام بما فعله بهم في المعركة السابقة) وتقدم بدرخان بنفسه وكان يقود الحملة لابلاغه الرسالة قبل البدء باطلاق النار، وهتف يقول، ليس لدينا خصومة معك يا شماس ولا مع الآغا باجان الذي تنتسب له، فاخرج إلى طريقك وانت آمن وسنصفي حسابنا معهم هنا (١٧٨).

فأجابته الشماس بثبات واصرار انا ممنون منك لكني هنا الآن بين اخواني وسوف اخرج إلى طريقي مقاتلاً معهم. وكانت معركة ضارية وحشية لم ينج احد من المسيحيين منها وخر الشماس أبلحد صريعاً. وعلى الرغم مما قاله ويگرام فانه يعلق على موت الشماس (مات خير ميتة يتمناها رجل) (١٧٩) بعد ان اطلعنا على النموذج من القتال بين فئة وأخرى في كُردستان دون ان يكون للسلطة دخل فيها سنتعرف هنا على احدى تحركات القبيلة الكُردية بالسلطة، ونقصد هجوم قبيلة الهماوند على القوات العثمانية المحتلة لارض كُردستان.

يذكر ميجر سون، كان في السوق والمقاهي موضوع واحد يدور الحديث حوله في هذه الأيام وهو الهماوند، وتناهى إلى سمعنا انهم ينوون غزو السليمانية (٢٧).

وبعد بضعة أيام على ما يبدو، اخذ سون يجمع المعلومات عن تحركات حكومية لمعاينة قبيلة الهماوند، اذ سرت الاشاعة ان كُنائب من الاناضول وبلاد ما بين النهرين تتجمع عند

* الملا: كلمة تعني رجل دين في العراق، وهي كلمة غير عربية.

جمجمال، وقد استطاع سون ان يتأكد من صحة الاشاعة من الرسائل التي كان يتسلمها من الموصل وبغداد، فقد تأكد لديه من وجود (٣٠٠٠) أو (٤٠٠٠) عسكري من المشاة والبعالة وانهم يتجمعون للاجهاز على نحو (٢٠٠) من الخيالة الهماوند لكن الهماوند ضاعفت من عزيمتها وغزت جمجمال وقتلت جنودها (٢٧).

ان من الإنطباع التي دونها سون حول تقاليد الحرب عند الكُرد، ان الهماوند عندما اسروا الجيش التركي في منطقة بازيان وكان هذا العسكر بقيادة مقدم (بكباشي) ونقيب (يوز باشي) وقد قتل الأمر وكثير من الجند وكانت مع الجيش نسوة وعلى ما نعتقد انهم تركوا السليمانية خوفاً من هجمة الهماوند. سمع سون من امرأة، كلفت من قبل الهماوند بتفتيش لباس النسوة التركيات، أي ان الرجال الهماوند احجموا عن تفتيش النسوة الاسيرات ويعلق سون الذي عايش الكُرد مدة طويلة على هذا الموضوع، ان الكُرد وحتى اشداهم بدابة لايعمدون إلى انتهاك حرمة النسوة في الحرب، وان الهماوند قبيلة تقية تعتمد إلى ايقاف افعال الغزو أو القتال عندما يحين وقت الصلاة (٣٠).

ومن الامثلة التي اسرت افئدة الخصوم مواقف الشيخ محمود الحفيد في الحرب واخلالته الحربية ما تحدث به كلارك الضابط السياسي لسلطة الانتداب عام ١٩٢٤ إلى هاملتون، اذ يقول، وما كان وقعه شديداً على النفس، ان الشيخ بالرغم من مقاومته اليائسة ووضعه العسكري السيء ظل محافظاً على حسن مسلكه معنا طوال الحرب وعلى الرغم من قصف السليمانية، وما يدل على ذلك ان ضابطين بريطانيين اسيرين اصيبا بمرض فأرسل الشيخ الذي احسن معاملتها - رسالة الينا يطلب طبيباً لفحصهما والعناية بهما وقال انه سيطلق سراحهما اذا حكم الطبيب بخطورة مرضهما ووجب نقلهما إلى بغداد ومن خط الجبهة استقبال الطبيب بعبارة ترحيب من قبل الشيخ وسار به إلى الاسيرين ولما فحصهما ظهر ان كل ما يشكوان منه وعكة سببتها حالة الاسر، فرأى الطبيب ان الصدق يقضي الايطلب اخلاء سبيلهما بسبب حالتها الصحية وصارح الشيخ بذلك فما كان الا ان اطلق سراحهما (٩٩).

ويحدثنا بالسييل نيكتين (١٩١٥-١٩١٨) عن السلب أو قطع الطريق في كُردستان وقد جاء ذكر هذا الموضوع في أكثر من مصدر مثلما جاء ذكره في أكثر من موقع من هذا الكتاب، بيد ان ملاحظة باسيل نيكتين جديرة بالاهتمام اذ يذكر ان من العار على قاطع الطريق في التقاليد الكُردية ان يلجأ إلى الخيلة في سلب الناس بل يجب عليه ان يعتمد على قوته وجرأته ويعرض حياته للهلاك ويجب على الكُرد ان اضطرته الحاجة إلى قطع الطريق ان يحمي من هو اضعف منه كما عليه ان يحترم نفسه فلايتهجم قط على امرأة أو عجوز أو طفل لذلك لايلجأ التجار في نقل المبالغ الضخمة من المال إلى البريد بل يأتمنون عليها رجلاً

عجوزاً يحملها ويجتاز بها الجبال والوديان دون ان يتعرض لأي خطر أو ازعاج وهذا الإحترام للشيوخوخة من نبل الصفات التي يتميز بها الكُرد (١٣١).

ولعل هذا ما حدا به جيمس كريح (١٨٨٠) ان يدلي باستنتاجه إلى كل من يريد السفر إلى كُردستان والى أي مسافر بريطاني انه مندهش من الامن التام الذي يحظى به المسافر والعناية التي يحاط بها من قبل الكُرد (٢٠١).

ومثال آخر مستمد من الزحف العثماني على الشيخ عبد السلام البارزاني يرويه ويكرام فقد كان احد الارتال العسكرية يعقب الشيخ وفي أثناء ذلك قبض على صبي تأخر عن الجماعة الفارين فطلبوا منه مهديين ان يدلهم على الجهة التي سلكها شيخه الا ان الصبي كان اصلب من الحديد واجابهم (اقسم باسم الشيخ المبارك اني لن اخبركم) وكان هذا كل ما استطاعوا انتزاعه من الصبي بعد صنوف الترغيب والتهديد. وتشاء الصدفة ان يكون قائد الرتل التركي طيب القلب فلم يسيء معاملته الاسير الصغير ولكنه لم يتردد في استخلاص حكمة من سلوكه بعد ان اخلى سبيله فقد قال لضباطه وهو يبتسم "لن نريح من هذه الحرب شيئاً" وبامكانكم ان تحكموا من هذه الواقعة على طبيعة الرجال الذين نقاتلهم فهذا الطفل كان تحت رحمتي وكان يعرف ان بامكاني قتله ولكنه مع هذا تحداني وحلف باسم شيخه وكأنه يحلف باسم الله (١٣٤).

وما عدا المعارك التي تحدث بين الكُرد والحكومات المتعاقبة، الفارسية أو العثمانية أو الإنكليزية الاحتلالية، فان كثيراً من المعارك والخصومات التي تكتنف حياة الكُرد تعزى إلى اسباب بسيطة أو تافهة في جوهرها.

ويبدو ان موضوع الثأر أو الثارات هي من أكثر مبررات القتال وتعقد الخصومات على صعيد الافراد ضمن القبيلة الواحدة أو بين القبائل أو حتى عشيرتي قبيلة واحدة.

ان ريج يأتي بمثال على عشائر الخوشناو وهي ثلاث: مير محمد علي ومير محمد يوسف وبيشدري ويقول ان بين الاوليين ثأر قديم يجعلهما في حرب مستمرة لصالح الباشا الباباني (ويقصد باشا السلمانية أمير بابان) الذي لا يتمكن من ادامة سيطرته عليها الا باستغلال مهارته للاستفادة من انشاقهم على انفسهم، وهناك جدول صغير يفصل بين العشيرتين، ولهم جامع واحد مشترك يجتمعون فيه أيام الجمعة للصلاة ثم يفترقون من بعدها فيرجعون على الاغلب إلى اماكنهم ويشرعون بتبادل الرمي، وقد شرعوا مرة بالخصام في الجامع فقتل عشرون أو ثلاثون منهم. لاشك ان الثأر مظهر بدائي ونجده في كثير من المجتمعات البدائية والمجتمعات في دور التطوير. والحقيقة فان في الثأر ثلاث صفات سيئة، الأولى ان من يثأر فقد تغافل عن القانون وادارة المنطقة ويفترض ان القانون عامل ينظم حياة المجتمع. اذن فالثأر

اعتداء على القانون، وثاني الصفات ان الثأر قد يقع على شخص من القبيلة وليس على المعتدي نفسه، اذ قد يموت المعتدي ويقع الثأر على اخيه أو ابنائه أو احفاده أو حتى اقربائه وفي هذا تجاوز مطلق على العدالة وثالث الصفات في الثأر انه مستديم فعملية الثأر تعني تبادل العدوان وقلة من الناس من تكتفي وتجنح للسلم، فالثأر اشبه بالمتوالية المستمرة وهكذا يمكن ان نجد اعداء لايشعرون حقيقة بالعداء لان الموضوع عفا عليه الزمن وقد يكون من زمن الاجداد، لكن التقليد القبلي يملئ عليهم اتخاذ موقف العداء.

ومن هنا يمكن ان نقول ان الثأر لعب دوراً كبيراً في تاريخ المجتمع الكردي وبدلاً من ان تلعب الحكومات اللاكردية في كردستان عبر التاريخ دور المصلح الموفق بين القبائل المتخاصمة فانه كان من صالحها ان تؤجج نار الفتنة وتزيد من اشكال الحقد ان لم نقل انها كانت تسهم فيه من موقع الظل، فالثارات والخصومات العشائرية هي احدى عوامل رسوخ هذه الحكومات عبر التاريخ. ان كثرة الثارات هذه واستشرائها على صعيد الافراد والعشائر خلفت بعض التقاليد وربما بعض اشكال الاتفاق المتبادل بين المتخاصمين على طريقة الخصام.

لقد لاحظ هذا الامر عدد من الرحالة. ان يكرام يقول عن ذلك، بصورة عامة تؤخذ الثارات ببساطة قلب متناهية وبروح رياضية طيبة وياقل القليل من الحقد (٢٦٥).

ان ما ذهب اليه ويكرام صحيح، فقلة من الثارات تؤخذ سريعاً أو عاجلاً، بل ينتظر طالب الثأر الفرصة المواتية وقد تطول، ثم انه شبيه الدين الذي يجب ان يدفع، هذا ما يجعل الثأر واخذه يبدو وكأنه اقل حقدًا من مواقف أخرى أو من مشادات جديدة تسفر عن قتال وهناك امثلة كثيرة عن التقاء عدوين بينهما ثأر ولكن المكان لم يكن يصلح للانتقام فجلسا معاً وشربا الشاي وتبادلا النكات ثم مضى كل واحد منهما إلى سبيله ولكن هذا لايعني ان الثأر قد زال بل لم يحن موعده المناسب بعد. ويذكر هاملتون مثلاً عن متابعة صاحب الثأر لثأره وكيف انه على استعداد لتابعته إلى العالم الاخر ولن يكف الا باخذ ثأره.

ومن الامور التي استرعت انتباه بعض المستشرقين ان الكرد في حروبهم يمكن ان يتبادلوا الأبناء البكر كرهائن وقد اشار إلى ذلك باسيل نيكييتين (٩٩). ويبدو ان مثل هذا الامر يحدث أثناء ايقاف القتال أو الهدنة من اجل التفاوض أو من اجل ضمان الثقة المتبادلة وقد حدث ان ارسل أمير بابان ابنه (ضيفاً) عند الشاه تعبيراً عن ثقته بالشاه والاعراب عن ولاءه وترجيح العلاقة بين كردستان وإيران وابعادها عن الدولة العثمانية قدر المستطاع، على اية حال فان ما فعله أمير بابان لم يكن على اساس (تبادل الأبناء) بل رهن ابنه حسماً للموقف ولوضع حد لما كان يحاك من وراء ظهر الأمير من مؤامرات لتعويض حكمه، بين والي بغداد التركي ومركز الدولة في الاستانة.

ويذكر الميجر كينيت ماسون في محاضرة ألقاها عام ١٩١٩ في الجمعية الملكية الجغرافية في لندن، ان كل واحد في كُردستان يحمل بندقية من عمر الثامنة فصاعداً ويعقد حول خصره حزامين أو ثلاثة من احزمة الاطلاقات. ويسترسل في محاضرتة، اذ يذكر، كانوا لا يعرفون كيف يمكن منعهم من حمل السلاح فيقول لا يوجد احد تحت حكمنا في وادي الرافدين مسموح له ان يحمل السلاح ولكن في كُردستان اذا حاولنا ان نلزم الأكراد بالقوة لنزع اسلحتهم منهم فقد يهجم الكُرد من الجهة الإيرانية، وانه لعجيب ان اسلحتهم من بنادق ومسدسات تأتي من تلك الجهة وبعضها جديد وبعضها الاخر قديم. ولو تفحصنا -والحديث ما زال لماسون- الاسلحة التي تمتلكها قبيلة ما لوجدناها تتكون من نصف دزينة من الأنواع المختلفة التركية والالمانية والروسية وهناك عدد جيد من الاسلحة فرنسية الصنع، وبعض هذه الاسلحة -دون شك- قد اشترت أو هربت بواسطة مهربي الاسلحة في الخليج والأخرى قد ارسلت من تركيا. ومصدر قسم منها ساحات القتال في وادي الرافدين والمخيمات أو مما يؤخذ من الجنود القتلى في القوقاز أو من الأتراك أو الروس التائبين (٣٣٤).

ومن الرحالة الذين اسهبوا الوصف بدقة عن المهارات القتالية الكُردية هو شميدت الذي واكب على ما يبدو معارك قتالية وتخطيطات وعمليات استعدادية فاعجب بتلك المهارات التي سنوجز بعضاً منها.

يذكر شميدت ان التكتيك الحربي الكُرد الذي شاهده كان يتطلب السرعة والصبر والخذعة والحركة ليلاً، التفرق وتعويضاً لهم -أي الكرد- عن عجزهم في السلاح الثقيل كان بوسعهم ان يتحركوا اسرع من الجنود النظاميين للحكومة فوق ارض وعرة، وفي الواقع فوق سفوح جبال شديدة الانحدار لا يحلم الجيش النظامي بمحاولة التصدي لها...

انهم ليحاولون أي نوع من أنواع التسلق الصخري، من اجل اطلاق رصاصة على العدو أو لتؤخذ صورة لهم. والكُرد من وجهة نظر شميدت لهم قابلية على التحمل تبعث في نفس المراقب الذهول فمسيرة ثمانى أو تسع أو حتى عشر ساعات هي روتين يومي، والمسيرة معناها السير على القدم بكل معنى الكلمة.

اما اصابة الهدف فهي مدعاة فخر لدى كل كردي تقريباً وهذه المقدرة وخفة الانتقال نسبياً تساعد على وضع كل كردي في الخط الامامي من القتال ومن اشكال الخدع الحربية التي استمع اليها شميدت من احد المقاتلين الكُرد يقول:

نطوق العدو ونقلقه بالرمي المتقطع الا اننا نترك له منفذاً واحداً للهرب كأننا سهونا ولا بد ان يهتدى اليه ان عاجلاً ام آجلاً، فندعه ينطلق منه وما ان يتحرك حتى نطبق عليه من المؤخرة باقرب مسافة ممكنة وان اقتربنا منه لم يعد في اسلحته الثقيلة فائدة (١٠٢).

ويذكر شميذت ايضاً مدى حب الأكراد لسرد الحكايات عن كيفية خداع الخصم من الحكومة ومنها الاستيلاء على مخافر الشرطة من خلال حفر الانفاق وانذار الشرطة بان المخفر الذي يعتصمون به اصبح تحت ايديهم اذ بامكانهم تفجيريه من تحتهم فيستسلمون، هذا في صراعات الكُرد مع الحكومات.

ومن اشكال الحيل الحربية التي سجلها شميذت ايضاً ارباب واقلاق العدو وانهاكه في عدم السماح له بالنوم من خلال انازة الحاميات ليلا باضواء ساطعة قوية، كما ان معظم الهجومات تكون في الليل تغاديا للغارات الجوية.

ومن الاساليب الحربية السائدة بين الكُرد التفرق فكثيراً ما تقتضي الضرورة ان تعمل الفرق المحاربة باعداد صغيرة وفي مواضع متباعدة ويحرصون على تباعد المسافات فيما بينهم كي لا يكونوا هدفاً مغرباً لهجوم محتمل، وكذلك يتجنبون التعسكر في أي منطقة أهلة بالسكان كالقرى .

اما بارث فيرى ان آخر وأكثر المشاهد التي تمنح القيادة فرصة التعبير عن منزلتها تكون من خلال الموقف في الصراع المسلح. ان الفصل بين رئيس السلم ورئيس الحرب يمكن ان يلاحظ باستمرار في كثير من المجتمعات - أي الفصل بين المسؤول السياسي والمسؤول الحربي، بيد ان في كُردستان يكون رئيس الحرب في ذات الوقت رئيس السلم.

ويذكر بارث ان في الوقت الحالي ويقصد مطلع الخمسينات من القرن العشرين فان الادارة الخارجية - يقصد الدولة - تمنع الصراعات الحادة المستوى باي شكل. وهذا النوع من القيادة المنوه عنها في اعلاه اصبحت نادرة وفي مناطق ضيقة، ولكنها كانت ناشطة حتى عشرينات القرن العشرين وان ما سنذكره هنا هو وصف لما كان يجري في السابق.

في النظم السياسية القبلية فان كل آغا ورئيس يكون مدعواً من (الدائرة السياسية) كما يسميها بارت، ونعتقد انه يقصد الجهة العليا في القبيلة التي تدعو اغوات ورؤساء الافخاذ في القبيلة إلى القتال وبهذا يكون كل آغا أو رئيس مسؤولاً عن حشد وقيادة عدد من المسلمين بالبنادق.

ان اغوات القرى بامكانهم شن الحرب ايضاً وبشكل مستقبلي مثلما يفعل الهماوند، ان مثل هذه التجمعات المحاربة أو المهاجمة تعمل كحجر عثرة للتقدم السياسي.

فعلى سبيل المثال، الهماوندي الذي يحتل قرية بدعم من الآغا لا يلبث بعد فترة طويلة أو قصيرة حتى يتوقف عن طاعة الآغا الذي دعمه في احتلاله للقرية ليعلن نفسه آغا على القرية ويعتبر هذا من حقه الشخصي. ويكون مثل هذا العمل اسهل في المناطق غير القبلية، وان القائد الحربي الناجح في عملياته قد يجتزيء لنفسه منطقة نفوذ (١١٤-٥).

اللغة والأدب

لقد اهتم عدد كبير من المستشرقين باللغة الكُردية في محاولة فهم سلالتهما وتراكيبها وقد ظهرت كتب في قواعد اللغة الكُردية والتعريف بالكُردية في وقت مبكر والحقيقة لسنا بصدد عرض كل هذه الدراسات وبالتفصيل ذلك اننا بصدد وضع دراسة (كتاب) حول اللغة الكُردية من منظور إستشراقي ولذا ارتأينا ان يكون هذا الفصل بالقدر والسعة التي يتحملها كتابنا الحالي هذا ومن دون الدخول في التفاصيل اللغوية.

ان من الكتب المبكرة التي اهتمت باللغة الكُردية هو كتاب القسيس الايطالي كارزوني المطبوع عام ١٧٨٧ وقد سكن هذا القسيس اللغوي مدينة العمادية وانتبه إلى المتكلمين باللغة الكُردية حتى وضع قواعدها وكذلك جمع مفرداتها في قاموس وبلغت صفحات الكتاب ١٨٧ صفحة.

وفي عام ١٧٨٧ ظهر قاموس مقارن في اللغات واللهجات اعده بالاس كانت اللغة الكُردية احدى اللغات التي تناولها القاموس. وفي عام ١٨١٤ ظهرت دراسة لـ فون همر تناولت اللغة الكُردية ولهجاتها.

وفي عام ١٨١٤ ايضاً ظهرت دراسة لـ كلاپورت في جامعة ميشيكان (اميركا)، قارن فيها بين المفردات الكُردية والفارسية واللغات القريبة منهما.

وفي عام ١٨٣٦ ظهرت دراسة لـ هورنل وسجيندر وهي دراسة جغرافية اهتمت باللغة الكُردية إلى الجانب الجغرافي وهذا غيظ من فيض والحقيقة بدأت الدراسات الكُردية باقلام المستشرقين تتزايد ومع مطلع القرن العشرين بدأ الإهتمام بالادب الكُردى فطبع ديوان الشاعر الكُردى المعروف الجزيري في برلين عام ١٩٠٤.

ومن النتاجات البارزة في هذا المجال التحفة المظفرية التي اعدها اوسكارمان البحائة الالمانى وطبعها عام ١٩٠٥ في برلين وهو كما يذكر استغرق عمله من ١٩٠١ الى ١٩٠٣ جمع فيها عدداً من النتاجات الادبية والفلكلورية القصصية وقد كتب اوسكارمان مقدمة مطولة لكتابه.

لقد اهتم بعض المسؤولين البريطانيين باللغة الكُردية الى جانب مهماتهم السياسية والعسكرية في المنطقة مثل الميجر سون الذي كان حاكماً سياسياً في السليمانية وله كتب في اللغة الكُردية وقواعدها ونشر عدة دراسات ومقالات عن اللغة الكُردية كما وانه شجع وروج لاستخدام اللغة الكُردية في السليمانية، وشجع الصحافة الكُردية.

نجد معظم الدراسات الإستشراقية قد تعاملت مع اللغة الكُردية لغة مستقلة لها شخصيتها ومواصفاتها وهويتها، لا بل أكثر من ذلك فأن بعض المستشرقين أو المعنيين باللغة الكُردية سواء قبل مجيئهم الى الشرق ام من خلال دراساتهم التي كانت تعدهم للقيام بمهامهم في الشرق يولون اللغة الكُردية اعتباراً رفيعاً، فهذا السير ويلسون يضعنا وجهاً لوجه اما عراقية اللغة الكُردية اذ يصفها بأنها اقدم اللغات الموجودة في بلاد آسيا الغربية (١٧٤).

يرى مينورسكي (١٩١٥) ان اللغة الكُردية ليست كما يرغب البعض في ان يراها لغة فارسية محورة بل هي لغة لها شخصيتها المستقلة مثلما لها نظامها اللغوي المستقل.

وينتقل بعدئذ الى الحديث عن الادب الشعبي الكُردي الذي يصفه بالادب الفني الملحمي والمعبر عن التقاليد القومية وهو يرى ان لهذه الملاحم الكُردية جذورها الواقعية ويشير الى رائعة الخاني (مَم وزين).

يربط مينورسكي بين حالة الضعف في دراسة اللغة الكُردية وحالة اللارتقاء أو الهبوط في مستوى الادب الكُردي قياساً باداب الشعوب الإسلامية الأخرى.

ولا بد هنا من الاشارة الى ان ضعف الإهتمام باللغة الكُردية الذي يشخصه مينورسكي عاملاً مهماً من عوامل التأثير على الادب يعود من وجهة نظرنا الى عدة عوامل منها العامل السياسي وعدم تمتع كُردستان بكيان مستقل يكون لهذا الكيان لغته القومية الرسمية ومن العوامل ايضاً حالة الانبهار باللغة العربية لانها لغة القرآن فاهتم المثقف أو العالم الكُردى ومنذ ظهور الإسلام في كُردستان باللغة العربية أكثر من إهتمامه بلغته القومية، ثم حالة انبهار المتعلم الكُردى بالفارسية والتركية اللغات (الشاهنشاهية والسلطينية) جعل من اللغة الكُردية حبيسة الانغلاق الحضاري وان تنفس هذا الانغلاق عن نرف هنا وهناك ظهر بتعابير ادبية ولعل اول تعبير عن نرف قومي لغوي كان للخاني العظيم الذي اعلن لأول مرة في مَم زين (مجازاً) ان يقدم ادباً روائياً قومياً منظوماً باللغة الكُردية.

وهنا نود ان نوضح ما ذهب اليه مينورسكي. نعم كان هناك شعراء كرد قبل الخاني لكن الخاني اعلن عن كردية نتاجه وهويته القومية وشخص في مقدمته حالة التمزق القومي واصفاً العلاج وسبل التوحيد موضعاً ما في الامة الكُردية من قدرات وامكانيات لو قدر لها ان تنطلق.

يتحدث مينورسكي عن اول جريدة كردية ظهرت عام ١٨٩٨ وهي جريدة (كُردستان) التي صدرت في القاهرة وكان رئيس تحريرها مقدار مدحت وكذلك يذكر ما اعقب هذه الجريدة من

صحف ومجلات كانت ذات طابع قومي كردي.

ويحدثنا مينورسكي عن اولى الدراسات اللغوية الكرّدية ويستعرض اسماء الرحالة الذي جاوا كرّديستان من اجل التعرف على اللغة الكرّدية وخصائصها، وقد جاء ذكر باورن يودي، جيركوف، خانيكوف، مايفسكي، وتوميلوف، ماكسيموفيتش.

ومن الإهتمامات اللغوية الكرّدية الرائدة دخول اللغة الكرّدية الى جانب اللغات الأخرى في المعجم المقارن للغات واللهجات الذي تم وضعه بأمر من الامبراطورة كاترين (١٧٨٧) وكذلك الكتاب الذي اعده المبشر الكاثوليكي ماوريزيو كارزوني باللغة الايطالية عن قواعد اللغة الكرّدية بعد معايشة طويلة امدها (١٨) سنة في العمادية، والذي ذكرناه في البدء.

ومن الامور المهمة التي جاءت في كتاب مينورسكي اشارة الى المستشرقين واسمائهم من الذين عنوا مبكراً باللغة الكرّدية مثل السيد ليرخ الذي قابل بعض الأكراد الاسرى في فترة حرب القوم ونشر نصوصاً كرّدية ثم الاشارة الى اثنين من المستشرقين اللذين سافرا الى كرّديستان في أربعينيات القرن التاسع عشر لدراسة الكرّدي، ثم الاشارة الى القنصلين (خودزكو و-أ-زبا)، وقد نشر الاول في مجلة آسيا (١٨٥٧) مقالة حول لهجة السليمانية أو كما يسميها اللهجة الشرقية اما الثاني فقد كان في ارضهم من ١٨٤٨ الى ١٨٦٦ حيث كان يدرس اللهجة القريبة من اللغة الكرّدية (٣٧-٤٠).

لاحظ سون في بداية وصوله كرّديستان اذ قد بلغها في كرّديستان الشمالية الغربية اي كرّديستان تركيا وفي مدينة اورفا بالذات، ان الكرّدي يدعون ان المدينة كرّدية ويعلق سون على الرغم من وجود عدد من القوميات الأخرى في هذه المدينة الا ان الجميع يفهمون الكرّدية ويعقب سون ان الكرّدية قد فرضت نفسها على السكان الغرباء جزئياً وانها اي الكرّدية تستطيع ازاحة اللغات المتمركزة بسبب حيويتها و(فحولتها).

ولكن سون تفاجئه ظاهرة أخرى معاكسة لما شاهده وسمعه في اورفا فقد وجد في السليمانية ان جميع السكان تقريباً -على حد قوله- يعرفون الفارسية وان الناس في السليمانية كانوا يفهمون الفارسية بشكل افضل من فهمهم للهجات الكرّدية الشمالية والشرقية (٢٥٢).

وعموماً وجد سون ان الأكراد يجنحون الى تعلم أو استخدام الفارسية أكثر من رغبتهم في استخدام التركية (١٥٤).

ويذكر سون في معرض حديثه عن اللغة الكرّدية معارضاً ما رميت به هذه اللغة من اوصاف ربما عزيت الى التبعية السياسية للكرّدي وعدم تمتعهم بالاستقلال فهذا يعدها لهجة

ردیئة من اللغة الفارسیة، وذاك یعدھا لهجة عریبة وعلی الرغم من ان سون لا یحاول ان یعلل هذه التبعیة أو (الاحافیة) اللغویة تعلیلاً سیاسیاً أو عنصریاً كالذی ذكرناه تواءم ولكنه یقف وقفة منصف ربما لم یجرؤ ان یقفھا لغوی كردي.

ان سون یرى من اللغة الكرديّة لغة قادرة علی اظهار عراقتها وفصاحتها وهي من وجهة نظره تعد لساناً تاماً، غنیة بالاشكال النحویة والصرفیة وباعراب متمیز وهي متحررة من المقتبسات العریبة کلیاً.

ویرى سون ان اللغة الكرديّة اغنت الفارسیة ولكنها لاسف رمت الی هوة النسیان الكلمات القدیمة ذوات الاصل الآری المحض التي كانت تستعمل فیما مضی (١٧٢).

والحقیقة فأن سون یرید بهذا ان یعتبر علی الكرديّة التي ضحت بمفردات ذوات اصول آریة لتأتي بمفردات ذات اصول غیر آریة والواقع اننا لانود ان نخوض فی هذا الموضوع حرصاً علی الالتزام بهدف الكتاب.

وفي موقع آخر من مذكراته یؤكد سون ان البحث فی اللغة الكرديّة یوضح ان هذه اللغة عانت من تآكل الشكل وفساد النطق ویعلل سون هذا بامتلاك الكرد ادباً مصطنعاً.

ان ما یدهب الیه سون فی إمتلاك الكرد لادب مصطنع امر بلاشك یزعج بادیء ذی بدء القاریء فقد دأب المتعلمون الكرد وهم غالباً رجال دین علی دراسة الادب الفارسی واللغة الفارسیة بمنظور من الإعجاب والانبهار لا بل كان الادب واللغة الفارسیة جزءاً من الدراسة الدینیة فی الجوامع وما من التفات الی الادب واللغة الكرديتين.

ویذكر سون فی معرض ملاحظاته ان أكراد الجنوب تهفو قلوبهم دوماً الی ما هو فارسی وهذا هو السبب فی ان كثیراً من شعراء الأكراد - علی حد قول سون- یکتبون بهذه اللغة حصراً ویهملون لغتهم وهي الطیعة لنظم الشعر المغنی علی الوجه الممتاز. وحتى فی الانحاء الكرديّة الاقرب الی القطب التركي فأن اللغة الكرديّة لم تكن موضع إهتمام تعلیمی جاد ولم یكن الادب الكردي یستطیع ان یغالب اداب هاتین القوتین العظیمتین الفارسیة والترکیة فضلاً عن ان واقع الدراسة الدینیة واقع عریبي ومع هذا فقد استطاع بعض الرواد العمالقة ان (یؤسسوا) ادباً كردياً ومداخل لغویة كرديّة مثل الشیخ أحمد الجزیری (مه لای جزیری) وبابا طاهر والحفاني وعلی الترموخي وغيرهم ولكن بقیت النكهة الفارسیة والدینیة تشوب هذه النتاجات ومع الزمن اخذت هذه النكهة تضعف بتزايد الحس القومي الثقافی وبتضاعف النزعة الی بلوغ الانقی لغة وروحاً وهذا ما نجده الیوم ونحن فی نهاية القرن العشرين فی الثقافة الكرديّة مقارنة بالنتاجات التي استتارت إنطباعات سون فی أوائل القرن العشرين.

ويتحدث سون (١٧٥) ضمن إنطباعاته عن اللغة الكُردية وآدابها عن أحمد الخاني ويصفه بالكُردِي الطائر الصيْت ويذكر مؤلفاته وبراعته في وضع قاموس لتعليم اللغة الكُردية يحتوي على (٢٠٠٠) مفردة والقاموس منظوم شعراً.

والحقيقة فأن خاني اشتهر برأئته مَم وزين وهي رواية شعرية ترقى الى مصاف الروائع الادبية العالمية بشهادة المستشرقين والمتبعين وقراء هذه الرواية التي ترجمت الى بعض اللغات.

ويتحدث سون عن قرنين من الزمان من تاريخ السليمانية التي انجبت العديد من الشعراء من خدموا الادب الكُردِي ومن وجهة نظره فأن (نالي) هو افضل شعراء السليمانية.

يعتقد سون ان للشعر الكُردِي في السليمانية سحره ورونقه والترجمة تفقد هذا الشعر جمال الاصل فيه لان هذه القصائد من وجهة نظره ارتكنت الى اللغة ودور العبارة فيه أكثر من ارتكانها الى الفكرة وان هذه القصائد اصطنعت جميع ما تسمح به الشاعرية الفارسية من استعارات نمطية لذا كان الذوق الكُردِي في الادبيات يسرع الى الفارسي لاشعورياً وبخاصة لدى شعراء السليمانية، والحديث ما زال لسون، يؤكد ان اغلب الشعر الكُردِي شعر حب ويتصف بالتلميحات الخيالية واللعب بالالفاظ وعلى النمط الفارسي تماماً، ويرى ان الشعب الكُردِي شعب موهوب الفطرة ويملك جميع القدرات في مجال الحس اللغوي (١٧٦-٧).

ويورد سون تراجم لقصائد ادبية وأخرى فلكلورية في مذكراته، ويبلغ إعجاب سون بالشعب الكُردِي وقدراته ويضعه في مصاف اوربا ولكن قبل (٦٠٠) سنة اي ان ما وجده في كُردستان في مطلع القرن العشرين من تفوق فكري وادبي يمكن ان يقارن مع ما كانت عليه اوربا قبل ستة قرون لكن الفرق ان اوربا تقدمت وكُردستان بقيت (ممنوعة من التقدم) هذا ما يمكن ان يستشفه القاريء من إنطباعات ومذكرات سون في هذا المجال، وهي ملاحظة جديرة بالاهتمام ففيها ابعاد عدة تساعد الدارس على المقارنة والتشخيص لمن اراد ان يفهم الاستعداد الحضاري لدى الشعب الكُردِي والمعوقات السياسية وغير السياسية التي جعلت هذا الشعب متخلفاً (٦٠٠) عام عن شعوب اوربا وهو ليس بأقل منها في شيء من حيث الاساس (١٨١).

يقف ادموندز موقفاً صارماً بأزاء كل من الرحالة الذين توهموا في جعل اللغة الكُردية لهجة من اللغة الفارسية وهو يعد هذا الرأي رأياً بعيداً جداً عن الواقع بالرغم من وجود رابطة النسب بين الفارسية والكُردية الا انه يشير الى البون الشاسع بين الكُردية والفارسية جغرافياً وتاريخياً (١١).

ويخبرنا ادموندز ان اللغة الفارسية كانت لغة الطبقة العليا الكُردية الادبية التي درج كرد الجنوب على تفضيلها دون اللجوء الى العربية أو التركية (١٤٦).

ولا يعلق ادموندز على اسباب هذا التفضيل للغة الفارسية وليس مهماً ان تتخاطب الطبقة العليا بالفارسية أو تكون الفارسية لغة ادب لكن الخطورة تكمن في تنازل هذه الطبقة عن لغتها الكُردية ادى الى استشراف الفارسية لغة للتخاطب والادب عند الناس دون غيرها من اللغات. ليس المشكلة ان الكُرد لم يستخدموا التركية أو العربية لكن المشكلة ان الناس لم يستخدموا لغتهم الكُردية.

ان هذه الظاهرة على ما نعتقد لها اسبابها السايكوسوسيولوجية (علم النفس الإجتماعي) متمتجة بالعقدة الكُردية السياسية فاللغة الكُردية لم تكن لغة ديوان أو لغة امبراطورية مما جعل هذه الطبقة العالية تنظر بعين الصغارة الى اللغة الكُردية من جهة ومن جهة أخرى فان المنطقة التي يذكرها ادموندز أكثر اقتراباً من المدن الفارسية مقارنة بالمدين التركية أو العربية كبغداد والاستانة لان تعليق ادموندز جاء من خلال تطرقه الى مراسلة جرت بينه وبين الجاف، وهذا لا يعني ان الجاف وحدهم كانوا قد تبناوا الفارسية لغة خطاب بل السليمانية بأسرها كانت تعتمد الفارسية لغة رسمية كما جاء في مذكرات أكثر من مستشرق.

والحقيقة ما من لغة الا وكان لها لهجاتها، فاللغة العربية على سبيل المثال لها لهجات عديدة قطرية اي على اساس القطر الواحد ثم ان اللهجة الواحدة في القطر الواحد تنشعب الى لهجات محلية فلهجة اهل القاهرة هي غير لهجة اهل الاسكندرية، وهكذا في العراق فأن لهجة اهل الموصل هي غير لهجة اهل البصرة ويمكن ان نجد في المدينة الواحدة لهجات تختلف باختلاف جغرافية المدينة. وكذلك نجد ان القبائل في القوم الواحد تختلف لهجاتها مثلما تختلف لهجة قريش عن سائر اللهجات العربية لكنها كانت منطلقاً للعربية الفصحى بسبب بزوغ الإسلام في قريش ونزول القرآن بهذه اللهجة كانت هي الفصحى بينما نجد ان بعض الاقوام الأخرى كان لظهور الفصحى من بين لهجاتهم اسباب أخرى غير دينية قد تكون من خلال لهجة القائمين على حكم البلاد أو ربما لاسباب اقتصادية وإجتماعية جعلت من لهجة تتصدر اللهجات الأخرى في هذه الدولة أو تلك.

ونعود الى الكُردية التي نرى ان اللهجة الفصحى فيها لا بد وان تكون من خلال احد أمرين الاول ارتباط الفصحى بقيام كيان كردي شامل مستقل. والثاني التطور الهاديء البطيء لحركة اللغة بكل لهجاتها وما يشع منها من نشاطات ابداعية تلعب دوراً حاسماً ولكن بخطى وبيدة لرسوخ لهجة ما لهجة فصحى متبناة من قبل الشعب الكُردى بأسره.

يضعنا ادموندز امام خارطة الامارات الكُردية التي كانت تحكم كُردستان حتى منتصف

القرن التاسع عشر ويذكر منها امارة بهدينان التي كانت تشمل زاخو ودهوك وعقرة والعمادية وزيبار واما امارة سوران فكانت تشمل محافظة أربيل كلها وامارة بابان تشمل السليمانية واجزاء من كركوك ومن الامور التي يوردها ادموندز في هذا المجال وهي معلومات مستقاة من مصادر تاريخية بلاشك اي انها ليست مذكرات قدر ما هي معلومات تاريخية سابقة لادموندز.

يرى ادموندز ان اللهجات الكُردية تتبع هذه التقسيمات السياسية بشكل يقترب من الدقة ثم انه يرى ان من الناحية العملية يمكن ان تصنف كل اللهجات الى مجموعتين اساسيتين - الأولى يسميها المجموعة الشمالية- وتدخل فيها لهجات المنطقة الواقعة شمال وغرب الخط الممتد من ساحل بحيرة اورمية الجنوبي حتى انحراف الزاب الكبير عندما يغير اتجاهه من الجنوب الشرقي الى الجنوب الغربي ثم يواصل الجريان الى مصبه في دجلة.

اما المجموعة الجنوبية فيرى فيها اللهجات الشائعة في الاراضي الكُردية التي تنحصر بين الخط المرسوم اعلاه اي الممتد من ساحل بحيرة اورمية وانتهاء بمصب الزاب في دجلة والحدود الجنوبية لكُردستان وبذلك نستنتج وبشكل اوضح ما يريد ان يقوله ادموندز حول شمالية وجنوبية اللهجات الكُردية (١٤).

يرى شميدت ان التباعد الجغرافي والافتقار الى المواصلات الداخلية اخر الأكراد وادى الى اختلاف عظيم في اللهجات الكُردية وبقائهم عدة قرون ضمن الامبراطورية العثمانية تحت ستار الجامعة الإسلامية والقمع الارهابي المنظم.

ويبيدي شميدت إعجابه بالقصص الكُردية (الحكايات) لانها على ما يذكره تفصح عن سعة خيال متحرر من العقال.

ويسرد شميدت الحديث عن الحكايات الكُردية وكيف يتحلق القوم حول احدهم الذي يبدأ بحكاية ثم تتعاقب الحكايات تباعاً في جلسة ليلية في السماع، وقد اورد شميدت امثلة من تلك (الحكايات) (١٩٩).

ويعتقد شميدت ان روح الشعب تكمن في اغانيه وفي شعره وفي اساطيره وفي حكاياته وفي دينه وهذا الذي كان يحدو بالكُرد الى الاعتزاز الكبير بتراثهم الادبي والفلكلوري واذا كان شميدت (الأمريكي) قد ذكر هذه الحقيقة التي تسري على كل شعوب العالم فانه في ذات الوقت يمنح الكُرد في هذا المجال خصوصية واضحة عندما زار كُردستان في مطلع الستينيات وجاب قراها، فهو يعتقد ان هذه الامور اي اساطير الشعب وحكاياته تبدو أكثر واقعية واهمية للكرد مما هي للامريكان لانه قارن بين حياة الكُرد الذي يعيش البساطة وما

من مسليات ووسائل ترفيه لديه وما من مشاغل عصرية مقارنة مع الشخصية الأميركية، وهو في معرض حديثه يقارن بين الطفل الكردي والطفل الأميركي فالأخير قد يتعرف على اساطير شعبه من كتاب مصور انيق أو من خلال شاشة التلفزيون بينما الطفل الكردي له ان يسمع مباشرة اساطير وحكايات شعبه من اعضاء اسرته فهو يعيش ويتنفس في روح تلك القصص.

ان شميدت يحدثنا عن ابرز موضوعات هذه القصص الكردية التي استمع اليها وربما ترجمت له فهي تدور عن الصيد وقطع الطرق والبطولات والكرم والسماحة والبراعة في اصابة الهدف وقوة الاعصاب والفروسية والشرف والشأر وخيال المعارك واقراء الضيف واعمال البطولة والجمال والشجاعة وحكمة النساء.

يذكر شميدت ان هذه الاساطير والحكايات كانت الجذر لنشوء الادب الكردي، وكما يبدو فان شميدت الذي بدأ زيارته لكردستان صحفياً خرج منها عالماً أنثروبولوجياً لا بل مستكرداً إستشراقياً فان الفصل الذي جاء في كتابه بخصوص تطور الادب الكردي يعد فصلاً دسماً لا يقل ان لم نقل يفوق كثيراً الدراسات الإستشراقية التي تحدثت أو ابدت إنطباعاتها عن المجتمع الكردي ولكنها لم تشر، أو لنقل لم تكثر كثيراً بمسألة الادب الكردي.

يبدأ شميدت حديثه عن الريادة في الادب واللغة الكردية بـ علي الترموكي على الرغم من ان شميدت يضعنا امام عدد من الافتراضات حول الحقبة التي عاش فيها الترموكي فهناك افتراض انه عاش في القرن العاشر الميلادي وافتراضات أخرى تنسبه للخامس عشر وأخرى تنسبه الى القرن السادس عشر.

وشميدت يشير الى الجزيري الذي يعد رائد الشعر الكردي الصوفي الذي عاش في القرن الخامس عشر. ويعد ذلك يصف الخاني (أحمدي خاني) بعملاق الادب الكردي ويعلق عليه بانه ما زال موضع إعجاب العالم ودراسة الباحثين الكرد وقد عاش هذا الشاعر في القرن السابع عشر واشتهر برأئته مم زين التي ترقى الى مصاف الروائع الادبية العالمية.

بعد ذلك، ينتقل شميدت الى شعراء اردلان الذين شجعهم امراءهم، و اردلان تقع في كردستان إيران جنوب منطقة مهاباد ومن ابرز هؤلاء الشعراء محزوني الذي كتب بعد السنة ١٧٨٣ في بلاط (خسرو خان) بمدينة سنه ونظم شعراً باللهجة الكورانية.

وبعد هذه المرحلة يتحدث شميدت عن الواقع الادبي في كردستان ابان القرن التاسع عشر من شعر ديني وصوفي وعن الشاعر حاجي قادر كوي (١٨١٥-١٨٩٢).

وقد وصفه شميدت بالشاعر الذي (عاتب) رجال الدين والشيوخ بالكسل الفكري وعدم مواكبتهم الحياة المتغيرة وقيادة الشعب الكردي الى سبيل الوطنية التي يصبو اليها.

والحقيقة وخارج منظور شميدت نود ان نوضح بأن الشاعر حاجي قادر كوي كان قد رحل من كُردستان العراق الى تركيا واتصل بالاسرة البدرخانية المناضلة التي اشتهرت بنضالها في كُردستان تركيا وقد تأثر حاجي قادر كوي بالشاعر الكُردي الكبير أحمد الخاني ونجد الكثير من شعره شبيهاً بشعر الخاني شكلاً ومضموناً، اما موضوع نقده لرجال الدين فالحقيقة لنا رأينا في هذا اذ نعتقد ان الحركات الكُردية القومية تكاد تكون جميعها حركات قادها رجال الدين فشورة الشيخ عبيدالله الشمزيني (النهري) ثورة قومية كبرى قادها رجل دين وصاحب طريقة صوفية. وكذلك ثورة الشيخ سعيد بيران وكذلك الحركة الكُردية التي قادها القاضي محمد وحركات بارزان المناضلة كان قادتها رجال دين لما يقرب من اربعين عاماً بدأت من الشيخ عبد السلام البارزاني صاحب الطريقة النقشبندية في كُردستان الذي ثار على الحكومة العثمانية وشنق في الموصل في ١٩٠٩ ثم الحركة الكُردية بقيادة الشيخ أحمد البارزاني الذي قاتل ونفي الى تركيا ثم عاد ثم سجن وبعده مصطفى البارزاني وهو يحمل لقباً دينياً (الملا مصطفى) ويمتلك نزعة دينية واضحة وكثير من رجال الدين وطلبة الفقه والدين ذادوا عن كُردستان ببسالة ولكن ربما كان حاجي قادر كوي يطالب بالمزيد وهو محق في مثل هذه الرغبة في التعبئة لما لرجل الدين من نفوذ نفسي وإجتماعي في كُردستان وقد تطرق شميدت الى شاعر آخر وهو الشيخ رضا الطالباني وهو شاعر الهجاء والنقد والقدهح.

يذكر لنا شميدت نشاط الحركة الثقافية الكُردية بعد الحرب العالمية الأولى في السليمانية وأربيل وراوندوز ثم اصبحت السليمانية مركز ثقل الثقافة الكُردية اذ صدرت عن هذه المدينة صحف ومجلات كردية أكثر من سواها من المدن الكُردية.

ويستعرض شميدت رموز الشعر الكُردي في القرن العشرين بعدما تقدم اذ يذكر كوران وبيكس وكامران بدرخان وجكرخوين وجاسم جليل وميخائيل رشيد وادباء آخرين مثل نور الدين زازا وأحمد البوتي وقدرى جان وعثمان صبري.

كذلك يذكر المؤرخين الكُرد مثل محمد أمين زكي وحسين حزني موكرياني ورفيق حلمي اما ابرز النقاد فهو علاء الدين السجادي.

ويتحدث شميدت عن الصحافة الكُردية والريادة فيها ويقصد جريدة كُردستان التي اصدرها افراد من الاسرة البدرخانية ثم مجلة هاوار وروناهي التي اصدرها جلالات بدرخان وكامران بدرخان ومن بعد روزانو الصادرة في بيروت.

ثم يذكر شميدت افتقار كُردستان إيران الى الصحافة الكُردية ومن بعد يتعرض الى الحركة الثقافية والصحافة الكُردية في ارمينيا (ايريفان) والجريدة نصف الاسبوعية رياتازه اي الطريق الجديد الصادرة في ايريفان وكذلك مجلة أخرى تصدر في تبليس اسمها (مجلة

القفقاس).

ويذكر شميدت بأن اللهجة السورانية قد أصبحت الوسيلة المعتد بها للتعبير الادبي في العراق ويعزو ذلك الى إهتمام امراء بابان بالادب في النصف الاول من القرن التاسع عشر ولكنه يذكر في الوقت ذاته ان (الكرمانجي) التي يصفها انها لهجة اهل كُردستان الشمالية سيتضح بعد زمن طويل بانها انقى اللهجات واقواها على حد تعبيره (٢٢٧).

يرى هَيّ ان اللغة الكُردية ممتعة للغاية وهو يعتقد ان من اليسير تعلمها بالنسبة الى من يعرف الفارسية ومن امتلك فرصة التحدث مع اهلها.

وهي يعرف ان اللغة الكُردية خالصة ولكنه مع ذلك تتراعى لغير الاختصاصي باصول اللغات وكأنها لهجة فارسية خشنة.

ان هَيّ يرى لاسباب لغوية ولما موجود من اصوات وحروف علة في الكُردية لاتوجد في العربية فهو لاينصح باستخدام الحروف العربية في الكتابة الكُردية وهو يصف استخدام الحروف العربية في الكتابة الكُردية انها طريقة غير سديدة.

لقد وجد هَيّ ان المراسلات بين زعماء الأكراد في الموصل وبعثه انه يقصد بهدينان كانت بالعربية اما في أربيل فقد كانت بالفارسية وفي السليمانية يقول لقد حمل المقدم (سون) جاهداً اهل المدينة على استخدام لغتهم الخاصة واخذت تصدر صحيفة باللغة نفسها وقد ذكر سون من قبل ان اللغة الرسمية ولغة السوق كانت الفارسية في السليمانية.

ويحدثنا هَيّ عن اللهجات الكُردية وتعددتها ويرى في ذلك امراً طبيعياً لشعب ينتشر انتشاراً واسعاً وليست له لغة مكتوبة، وهو يقسم اللهجات الكُردية عموماً الى لهجتين شمالية وجنوبية (٥٤).

الفن والفروسية والألعاب

الموسيقى

لقد وصف ريج (١٨٢٠) الكُرد بأنهم ميالون الى الموسيقى ميلاً شديداً واغلب موسيقاهم حزينة. ويعرض لنا ريج أسماء بعض الأغنيات التي كانت شائعة آنذاك في عشرينيات القرن التاسع عشر منها (ملكى جان) و (مَمكوزه بَنَاز) و (أز دنالم) (٢٢٧).

وهذه الأخيرة (أز دنالم) كان قد أشار من خلالها توفيق وهبي في العدد الأول من مجلة المجمع العلمي الكُردى الى احتمال شيوع استعمال لهجة السلیمانية للضمير (أز) ثم انقراضه من بعد ولنا في هذا رأي لانجد ضرورة طرحه ضمن حدود هذا الكتاب. ويصف ريج هذه الأغنيات بالأغنيات الرقيقة كما يذكر ان للكثير من الأغنيات الكُردية أدواراً تتناوب.

يبدو ان أغاني الحصاد كانت قد أعجبت ريج، فقد ذكر أغنية (شرين وفرهاد) التي كانت تغنى من قبل الحاصدين (٢٢٧) فأعادتها الى ذاكرته أصحاب زوارق الجندول، في مدينة البندقية وهم يرددون أغنية تاسسو. ترى هل كان هناك تقارب في لحن الأغنيتين ام ان حركة الحاصدين ومسيرى القوارب تقاربتا في ذهينة ريج في تلك اللحظة؟... من يدري؟

ومما جلب انتباه ريج الى قيمة الموسيقى لدى الكُرد، ملاحظته انه عندما زار عثمان بك في إحدى الأمسيات في السلیمانية فأن عثمان بك كان قد هباً جوقة موسيقية لتسليية ريج ويبدو، ان الجوقة كانت مكونة من موسيقيين ومغنين قدموا من بغداد (٨٥).

اما توما بوا فقد كتب عن هوية الموسيقى الكُردية، فهي كما يذكر، غير منفصلة عن الرقص والأغاني وهي قسم من أقسام الموسيقى الشرقية ولكن لا يمكن مزجها مع الموسيقى العربية أو الأرمنية أو التركية، وهو يريد بذلك ان للموسيقى الكُردية شخصيتها المستقلة لا بل يزيد في ذلك، فهو يرى ان الموسيقى الكُردية أثرت في الغناء لدى الاقوام المجاورة للكرد. ومن ناحية تاريخية يذكر بوا ان الموسيقى كانت راقية أو متطورة في الإمبراطورية الساسانية ودام هذا التقليد عند الأكراد يتمثل بشغف الكُرد بالموسيقى.

ويذكر في كتابه ان الموسيقي الشهير (زرياب) كان كردياً من الموصل وكذلك يذكر ان اسحق الموصلى بدوره كان كردياً (٧٣).

وهو يتحدث عن واقع الموسيقى الكُردية في القرن العشرين اذ يصفها أنها على الرغم من الأمجاد الماضية للموسيقى الكُردية فأنها اليوم تعد فقيرة وشعبية وتحتفظ بطابع محرك للعواطف وغالباً هي موسيقى كئيبة.

اما دولوريه فقد جاء ذكره في كتاب توما بوا وهو الذي سجل إنطباعاته في القرن التاسع عشر عن الموسيقى الكُردية فهي كما يذكر، تتميز بأنغام منتظمة ولها تعبيرات رصينة وكئيبة، ويعبر دولوريه عن تعجبه كيف فرضت هذه العواطف وجودها عند قبائل عرفت بالعنف (٧٤).

لقد جذبت الموسيقى الكُردية انتباه الرحالة الذين جاؤوا كُردستان، ويعلق توما بوا على إنطباعاتهم انهم لن يجدوا في الموسيقى الكُردية حاجة الى إثبات أصالتها على الرغم من ان البعض كانت لهم وجهة نظر تناقض ذلك (٧٤) ولكن توما بوا لا يعلق على هذا التناقض ونحن نعتقد ان هذا التناقض في الرأي بإزاء الموسيقى الكُردية عند الرحالة الأجانب يمكن ان يعزى الى أكثر من سبب.

وأول سبب في رأينا، ان بعض الرحالة لم تتسن لهم فرصة الاستماع الى (كل) أو على الأقل (معظم) النماذج الموسيقية الكُردية، بل ربما استمعوا الى أنموذج أو اثنين ثم جاء حكمهم ذو طابع تعميمي وهذا خطأ أو على الأقل حكم غير منصف.

وثاني سبب في رأينا قد يعزى الى تأثير الرحالة بالتطور الحضاري وبما في ذلك الموسيقى في البلدان المحيطة بكُردستان فهم ربما جاؤوا كُردستان عبر استنبول أو طهران وهذه عواصم لإمبراطوريات، لا بد ان يكون الفن فيها قد تقدم وتطور قياساً بشعب مضطهد تتقاذفه الولايات من الشرق والغرب والكل يحاول طمس معالم واصالة هذا القوم.

ان المقارنة لا يمكن ان تكون موضوعية بين موسيقى القبيلة الكُردية على شواهد الجبال والموسيقى التي باتت تقدم على مسارح الاستانه أو طهران. ان عشرات من السنوات الحضارية وعشرات من السنوات السياسية الدموية تقف وراء الموسيقى الكُردية لذا لانعتقد ان التقويم عادل عند البعض من الرحالة.

يحدثنا توما بوا أيضا عن الآلات الموسيقية الكُردية وهي الآن في الغالب مصنوعة محلياً ومنها المزمار والطبل والناي والناي المزدوج والطنبور.

لقد ابتدأ البعض من خارج ومن داخل كُردستان يهتمون بدراسة الموسيقى الكُردية مثل الدكتور كريستنسن الذي أجرى دراسة مستفيضة في موسيقى الرقص الكُردية وكذلك درس الآلات الموسيقية الكُردية في منطقة هكاري (٧٥).

اما هاملتون فقد ذكر شيئاً بإيجاز عن الموسيقى الكُردية اذ عبر عن رغبته في ان يفهم شيئاً عن الموسيقى الكُردية فجلس الى جانب عازف شمشال (ناي) على قارعة الطريق وهو يبعث بنايه نغمات رقيقة لأغنية غرامية.

ان هاملتون يخرج بنتيجة ونحن لانعرف ما اذا كانت هذه النتيجة حقيقية من وجهة نظر (علم الموسيقى) اذ يذكر ان ما سمعه وما يسمعه من الأغاني واغاني الملاحم المرتعشة المرححة أو أغاني الحروب التي تسمع فيها ضجة المعركة توقع كلها على السلم الموسيقي الصوفي الكئيب ذي الربع نغمه الشبيه بنغمات ناي حواة الأفاعي. وهو أي هاملتون يصرح بإنطباع مفاده ان الكُرد لا يكونون تقديراً عالياً لموسيقى الإنكليز (٢٣٢)، ويبدو ان الكُرد بدأوا يسمعون أغنيات غربية من خلال الحاكي وكذلك من خلال (راديو) أتى به هاملتون فأصبح أعجوبة الزمان.

يذكر ويلسون ان الموسيقى الكُردية تعزف على مزمار يشبه موسيقى القرب وغالباً تكون في إيقاعاتها مفرحة (٢٩٠) وهذا يتقاطع ورأي ريج الذي ذكرناه، اذ قال عنها محزنة. ولعل ويلسون كان يقصد موسيقى الرقص.

اما هي، فله إنطباعه المختلف في حب الكُرد للموسيقى، وهو يذكر ان الأكراد كما يترأى له لا يكلفون بالموسيقى لا بل هو يحسب انهم يعدونها لا أخلاقية وان الآلات الوحيدة الموجودة لديهم هي الطبل والمزمار (زورنا) (٨٣) والحقيقة فأن رأي هي يناقض تماماً رأي ريج في كلف الكُرد بالموسيقى.

اننا نعتقد ان هي مصيب وغير مصيب في إنطباعه هذا عن موقف الكُرد من الموسيقى. خلط هي في أمرين بما يخص الموسيقى فالكُرد في الحقيقة يهوى الموسيقى ولكنه لا يريد لنفسه ان يكون موسيقياً.

ان الكُرد يرقص بأصالة رقصاته الشعبية على صوت الطبل والمزمار لا بل يرقص الرجال والنسوة معاً وبأيد متشابكة وقد أوصلته الموسيقى ذروة الطرب واي تعبير عن الطرب يفوق الرقص؟ لكن الكُرد في ذات الوقت لا يريد لابنه بأي شكل من الأشكال ان يكون نافخ مزمار أو قارع طبل وهم يعدون هذه المهمة خاصة بالغجر.

ومع ان الحياة الإجتماعية الكُردية أخذت وأخذة بالتطور والتغير ولكن ما زالت هناك اسر كردية كثيرة لاترغب لابنائها امتهان الفن أو الغناء وقد تبدو هذه المهنة للأسف معيبة ان لم نقل مشينة عند كثير من الأسر الكُردية.

لقد اصبح احد أصدقاء طفولة مؤلف هذا الكتاب فناناً، مغنياً وملحناً وشاء الزمان ان اتجهنا نحو الشعر وامتدته بعدد كبير من القصائد معظمها أشعار وطنية ألهمت الحماس الوطني والقومي لدى الجمهور ومنذ ستينيات القرن العشرين، وفي فترات عصيبة وكان شجاعاً في غنائه لتلك القصائد ولكنه مات مبكراً وفي صدره حسرة، ان والد زوجته كان قد